

متشابه القرآن الكريم

الأستاذة: حليلة تواتي

قسم اللغة العربية وآداب

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

إن إعجاز القرآن الكريم لم يكن بفصاحته و بلاغته و علو ألفاظه و شرف معانيه فحسب ، وإنما ظهر إعجازه أيضا في ترتيبه، ونظم آياته و تقننه في بداعة تنقلاته من فن إلى آخر بطرق متعددة و الإتيان آت عند التكرير تقاديا وتجنباً لثقل تكرير الكلم، ما عدا المقامات التي تقتضي التكرير، من تهويل وترهيب ونحوه، وقد يقتضي المقام شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيراً في أحدهما وله ذكرهما تفنناً⁽¹⁾

وقد وقع في القرآن الكريم الكثير من هذا، لكن مع الإبداع في اختيار ما يناسب المقام من ألفاظ، و هذا ما أسماه الأئمة المصنفون: *بعلم متشابه القرآن*

- وان كان في حقيقة الأمر قد أغفلوه في تفاسيرهم للقرآن الكريم

- في حين نجده قد حظي باهتمام بعض علماء اللغة، بل و قد أفردوه بالتصنيف⁽²⁾

وفي مقدمتهم عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الاسكافي (ت 420هـ) الذي تناول الآيات المتكررة بالكلمات المتقنة و المختلفة و حروفها المتشابهة في كتابه *درّة التنزيل و غرة التأويل*^{*} و قد ذكر الاسكافي في كتابه أنه أول من قرع باب متشابه القرآن .

و ممن صنف في هذا العلم بعد الخطيب الاسكافي هو أبو القاسم برهان الدين الكرمانلي الملقب بتاج القراء (ت 500 هـ) في كتابه * البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة و البيان *

كما صنف في هذا العلم أيضا علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي (ت 643 هـ) في كتابه * هداية المرتاب في المتشابه * ، و لاح في الأفق العالم أبو جعفر أحمد ابن إبراهيم بن الزبير الغرناطي الحافظ النحوي (ت 708 هـ) بكتابه * ملاك التأويل القاطع ذوي الإلحاد و التعطيل في توجيه متشابه اللفظ من آي التنزيل * (05)

و هناك من اكتفى بالإشارة إلى المتشابه فقط بإيجاز أثناء تدبره نظم القرآن الكريم، و لم يفرد بالتصنيف أمثال بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794 هـ) في كتابه * البرهان في علوم القرآن * (3)

01 تعريف متشابه القرآن الكريم:

عرفه الزركشي قائلا: «هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، و فواصل مختلفة، و يكثر في إيراد القصص و الأنبياء، و حكمته التصرف في الكلام و إتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به و متكررا (07) و يعني ذلك إعادة المعاني بنوع من التغيير و التقنن في الترتيب، و التجدد في الأسلوب حتى و إن كانت القصة نفسها وردت في موضعين فإننا نستشف مواطن التوافق و التخالف بينهما، و لو كان ما يختلفان فيه هي الفاصلة فقط. (4)

بالإضافة إلى ذلك فإننا نفهم من كلام الزركشي أن متشابه القرآن الكريم أنواع و ضروب. فما هي أضرب متشابه القرآن الكريم ؟

02 أضرب متشابه القرآن:

حصر الزركشي علم متشابه القرآن الكريم في ثمانية أضرب هي:

(1) ما يشتهر بالتقديم والتأخير:

لقد اشتمل القرآن الكريم على عدد من الآيات المتشابهة في المعنى المختلفة في المبنى بالتقديم والتأخير. ومن ذلك على سبيل المثال - لا الحصر - سورة الفاتحة، مطلع الكتاب العزيز، ما يستوقفنا فيها، هو ما افتتحت به أي قوله عز وجل «الحمد لله» فالحمد لله هو الشاء على الجميل، والحمد هو لله عز وجل على الصفات التي انفرد بها سبحانه وتعالى، سواء الذاتية كالعلم والقدرة أو صفات الأفعال كالخلق والارزاق وغيرها. ومشروعية حمده سبحانه وتعالى

في ابتداء الأمور و ختامها متقرر معلوم، فحتى بلغاء العرب كانوا لا يفتتحون خطبهم و كلامهم إلا بالثناء و الحمد، و من لم يفعل ذلك لقب بالأبتر و خطبته بالبتر⁽⁵⁾

و قد وردت هذه الآية «الحمد لله» بتقديم لفظة «الحمد» في خمس سور هي الفاتحة و الأنعام و الكهف و سبأ و فاطر و كانت في بدايتهم بأسلوب واحد و معنى واحد مع اختلاف طفيف في الفاصلة، بينما يبدو الفرق جلياً و ظاهراً إذا ما قارنا الآية «الحمد لله» من سورة الفاتحة، مع ما ورد في الآية 36 من سورة الجاثية في قوله عز وجل «ولله الحمد» فالتشابه الحاصل في الموضعين واضح وهو حملهما معنى واحد وهو الشاء على الله عز وجل ثناء جامعاً لوصفه.

و الجملتان اسميتان تتكون كل واحدة من مبتدأ مرفوع هي لفظة (الحمد)، و (لله) خبره، و الأصل فيه النصب على المفعولية المطلقة لفعل محذوف و التقدير نحمده حمداً.

أما الاختلاف الحاصل بينهما فيتمثل في ظاهرة التقديم و التأخير بين المبتدأ و الخبر الوارد في الآيتين (الحمد لله) و (ولله الحمد)، ولعل السبب في ذلك كون سورة الفاتحة هي أول سورة و مطلع كتابه فناسب ذلك افتتاحها بحمده

جل جلاله و الأمر بين. كما يمكن أن يكون السبب كون اعتراف المؤمن و علمه بانفراد جل جلاله بالخلق و الأمور غيرها من الصفات المذكورة ، وليس موضع توبيخ أو تقريع فتناسب البدء بالحمد و الشاء.

أما التأخير الوارد في سورة الجاثية (ولله الحمد) فسببه ليس التركيب اللفظي فقط بل قد يعرض من جهة المعنى أيضا ، أي أن الآية جاءت على تقدير الجواب ، فبعد تكذيب الكافر الجاحد لأخبار الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كأنه قال لهم نلن الحمد الآن ؟ فجاء الجواب على ذلك السؤال * لله الحمد *⁽⁶⁾

(2) ما يشبه بإبدال حرف بحرف:

وقد وقع منه في القرآن الكريم كثير، نذكر على سبيل المثال ما جاء في الآية 58 من سورة البقرة قوله عز وجل : ﴿وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا و قولوا حطة يغفر لكم خطاياكم و سنزيد المحسنين﴾ و ما جاء في الآية 161 من سورة الأعراف قوله عز وجل ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية و كلوا منها حيث شئتم و قولوا حطة، و ادخلوا الباب سجدا نفقر لكم خطيئكم و سنزيد المحسنين﴾

يتمثل التشابه بين الآيتين في أنهما تحملان نفس المضمون ونفس المناسبة وهي الإشارة إلى قصة بني إسرائيل لما نزلوا بمدينة قادش و أصبحوا على حدود أرض كنعان المقدسة التي وعدهم الله بها بعد خروجهم من مصر، فأرسل موسى عليه السلام اثني عشرة رجلا ليتحسسوا الأرض فوجدوها ذات خيرات، و لما أمر موسى بامتلاكها أشاع عشرة رجال ممن بعثهم الرب في نفوس بني إسرائيل لمنعهم من القتال، فاستشفع لهم موسى عليه السلام فغفا الله عنهم لكنه حرمهم من الدخول إلى الأرض المقدسة أربعين سنة. إلا يوشع بن نون و كالب بن بفتة لأنهما لم يثيرا الفتنة وحدثا بم رأياه⁽⁷⁾

أما الاختلاف الحاصل فهو إبدال حرف الفاء الوارد في آية البقرة في قوله عز وجل ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ بحرف الواو في آية الأعراف في قوله ﴿كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾.

و لعل سبب ذلك راجع إلى أن جملة البقرة سيقّت مساق التوبيخ فناسبها ما هو أدل على ذلك، بدليل أن فعل * قيل * أسند في سورة البقرة على ضمير الجلالة. * وإذ قلنا * لظهور أن هذا القول لا يصدر إلا من الله تعالى فكانت الجملة الواردة سورة البقرة أولى أن تكون بفاء التعقيب من واو العطف التي تفيد الربط و الجمع، في حين يرجع مجيء جملة الأعراف بالواو، لأن آيات الأعراف سيقّت لمجرد العبرة من قصة بني إسرائيل.

(3) ما يشبه أن يكون في موضع على نظم وفي آخر على عكس:

و هو يشبه رد العجز إلى الصدر، وهو قريب من ضرب التقديم و التأخير، من أمثله قوله عز وجل في الآية 135 من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ والثانية قوله عز وجل في الآية 08 من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الطِّينُ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾⁽⁸⁾

التشابه بين الآيتين واضح و جلي، فمن ناحية المضمون فهو عبارة عن دعوة للعدل في الحكم و أداء الشهادة بالحق لأنه قوام صلاح المجتمع الإسلامي، ومن ناحية الأسلوب فقد تم الاستفتاح فيها ببناء تبعه أمر بوجوب القيام بالعدل لكن مع هذه التشابهات نلمس تغير النظم بين الموضعين إذ جاء في الموضع الثاني على عكس ما جاء في الأول، فآية النساء قال فيها عز وجل ﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ أما آية المائدة فورد فيها ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ و السبب في ذلك أن آية النساء جاءت عقب آيات القضاء في الحقوق ثم

بقوله تعالى ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقَ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾. أما آية السجدة فقد قيلت في الفاسقين⁽¹⁴⁾

لأنها سبقت بقوله عز وجل ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ والفسق قد يطلق على ما دون الكفر، فلما صرح بالكفر الذي هو أعظم من الفسق كان العذاب أشد وهو الحريق، لأن الحريق هو النار البالغة في الإحراق، فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

ولقد عمد الله عز وجل أثناء تكراره لبعض القصص القرآني، وبعض المواضيع المختلفة إلى التنويع والتجديد والتغيير، فنجد القصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، لكن في صور مختلفة، إذ نراه لا يكرر الآية كما ذكرت من قبل، بل يذكر في موطن ما يطوى ذكره في آخر، ويفصل في موطن ما يوجز في آخر، ويقدم في موطن ما يؤخره في موطن آخر، ويغير أحيانا في التعبيرات، ونظم الكلام تغييرا لا يخل بالمعنى، وهذا هو علو مرتبة بلاغة القرآن الكريم، وقوة إعجازه.⁽¹⁵⁾

الهوامش :

- (1) - الطاهر بن عاشور- التحرير والتنوير - الدار التونسية للنشر (د.ت) ج 1 ص 118
- (2) - ابن الزبير الغرناطي - ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد و التعطيل في توجيهه متشابه اللفظ من أي التزويل - ج 1 - ط 1 (1403) دار الغرب الإسلامي ص 106
- (3) - الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله - البرهان في علوم القرآن - دار الكتب العلمية ط 1 ج 1 ص 112
- (4) المصدر نفسه ص 114
- (5) التحرير والتنوير ج 1 ص 156
- (6) ملاك التأويل ج 1 ص 158
- (7) التحرير والتنوير ج 1 ص 428
- (8 - 9) البرهان في علوم القرآن ج 1 ص 118 - 124
- (10) التحرير والتنوير ص 123 من ج 2
- (11) محمد طيب إبراهيم - إعراب القرآن الكريم - دار النفائس للطباعة ط 1 ص 176
- (12) التحرير والتنوير ج 3 / 211
- (13) طالب عبد الحفيظ - دروس في الصرف العربي - دار الغرب للنشر ط 1 / 2002 ص 132
- (14) السمرائي فاضل صالح - التعبير القرآني - جامعة بغداد (د:ت) ص 242
- (15) مناع قطان - مباحث في علوم القرآن - مؤسسة الرسالة. ط 24 . (د:ت) ص 308

